تفسير سورة التوبة (111-116)

تفسير سورة التوبة (111-116)

{إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (111)}

{إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ} يخبر تعالى أنه دفع للمؤمنين ثمن دمائهم وأنفسهم؛ الجنة، إِذَا بَذَلُوهَا فِي سَبِيلِه، وَهَذَا مِنْ فَضْلِه وكَرَمِه وإِحْسَانِه، فإنه مالك كل شيء ومن ذلك أنفسُهم ودماؤهم، ولكنه تفضل عليهم بهذه المعاوضة.

فكانت السلعة دماءَهم وأموالَهم، والثمنُ الجنة.

{يُقَاتِلُونَ} يقاتل المؤمنون {فِي سَبِيلِ اللَّهِ} لإعلاء كلمة الله وإقامة دينه {فَيَقْتُلُونَ} أعداء الله {وَيُقْتَلُونَ} هم، أَيْ: سَوَاءٌ قَتَلُوا أَوْ قُتلوا، أَوِ اجْتَمَعَ لَهُمْ هَذَا وَهَذَا، فَقَدْ وَجَبَتْ لَهُمُ الْجَنَّةُ؛ وَلِهَذَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: "وَتَكَفَّلَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ، لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا جِهَادٌ فِي سَبِيلِي، وَتَصْدِيقٌ بِرُسُلِي، بِأَنْ تَوَفَّاهُ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ يُرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ، نَائِلًا مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ".

{وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ} تَأْكِيدٌ لِهَذَا الْوَعْدِ، وَإِخْبَارٌ بِأَنَّهُ قَدْ كَتَبَهُ عَلَى نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ، وَأَنْزَلَهُ عَلَى رُسُلِهِ فِي كُتُبِهِ الْكِبَارِ، وَهِيَ التَّوْرَاةُ الْمُنَزَّلَةُ عَلَى مُوسَى، وَالْإِنْجِيلُ الْمُنَزَّلُ عَلَى

عيسَى، وَالْقُرْآنُ الْمُنَزّلُ عَلَى مُحَمّدٍ، صَلَوَاتُ اللّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ.

{وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ} أَيْ: وَلَا وَاحِدَ أَعْظَمُ وَفَاءً بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ مِنَ اللّهِ؛ فَإِنَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا}، {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ قِيلًا}.

وَلِهَذَا قَالَ: {فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} أَيْ: فَلْيَسْتَبْشِرْ مَنْ قَامَ بِمُقْتَضَى هَذَا الْعَقْدِ، وَوَفَى بِهَذَا الْعَهْدِ؛ بِالْفَوْزِ الْعَظِيمِ، والنعيم المقيم.

{التّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السّائِحُونَ الرّاكِعُونَ السّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللّهِ وَبَشّرِ الْمُؤْمِنِينَ (112)}

هَذَا وَصْفُ الْمُؤْمِنِينَ الّذِينَ اشْتَرَى اللّهُ مِنْهُمْ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِهَذِهِ الصّفَاتِ الْجَمِيلَةِ وَالْخِلَالِ الْجَلِيلَةِ: {التّائِبُونَ} مِنَ الذّنُوبِ كُلّهَا، التّارِكُونَ لِلْفَوَاحِشِ {الْعَابِدُونَ} أَيْ: الْقَائِمُونَ بِعِبَادَةِ رَبّهِمْ مُحَافِظِينَ عَلَيْهَا، وَهِيَ الْأَقْوَالُ وَالْأَفْعَالُ فَمِنْ أَخَصّ الْأَقْوَالِ الْحَمْدُ؛ فَلِهَذَا قَالَ: {الْحَامِدُونَ}، قال ابن كثير: وَمِنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ الصّيَامُ، وَهُوَ تَرْكُ الملاذّ مِنَ الطّعَامِ وَالشّرَابِ وَالْجِمَاعِ، وَهُوَ الْمُرَادُ بِالسّيَاحَةِ هَاهُنَا؛ وَلِهَذَا قَالَ: {السّائِحُونَ} كَمَا وَصَفَ أَزْوَاجَ النّبِيّ صلى الله عليه وسلم بِذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {سَائِحَاتٍ} أَيْ: صَائِمَاتٍ، وَكَذَا الرّكُوعُ وَالسّجُودُ، وَهُمَا عِبَارَةٌ عَنِ الصّلَاةِ، وَلِهَذَا قَالَ: {الرّاكِعُونَ السّاجِدُونَ} وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ يَنْفَعُونَ خَلْقَ اللّهِ، وَيُرْشِدُونَهُمْ إِلَى طَاعَةِ اللّهِ بِأَمْرِهِمْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيِهِمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، لذلك قال: {الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ} وهو كل ما أُمر به في الشرع

{وَالنّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ} وهو كل ما نهي عنه في الشرع، {وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللّه} هذا مع العِلْم بما يَنْبَغِي فعْلُهُ وَيَجبُ تركُه، وَهُوَ حفْظُ حدُود اللّه في تَحْليله وتَحْريمه، علْمًا وَعمَلًا، فَقَاموا بعبَادَة الْحَقّ وَنُصح الْخَلْق؛ وَلهَذَا قَالَ: {وَبَشّرِ الْمُؤْمنينَ} لأَنّ الْإِيمَانَ يَشْمَلُ هَذَا كُلّه، وَالسّعَادَةُ كُلُّ السّعَادَة لِمَن اتّصَفَ بِه.

{مَا كَانَ لِلنّبِيِّ وَالّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيّنَ لَهُمْ أَنّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (113)}

{مَا كَانَ لِلنّبِيِّ وَالّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ} لا ينبغي للنبي ولا للمؤمنين أن يطلبوا المغفرة من الله للمشركين {وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى} ولو كان هؤلاء المشركون أقرباءهم {مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيّنَ لَهُمْ أَنّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ} من بعد ما اتضح للمؤمنين أن المشركين أصحابُ النار؛ لأنهم ماتوا على شركهم.

سبب نزول هذه الآية:

ما أخرجه البخاري ومسلم عن سَعيدُ بْنُ الْمُسَيّب، عَنْ أَبيه، قَالَ: »لَمّا حَضَرَتْ أَبَا طَالب الْوَفَاةُ، جَاءَهُ رَسولُ الله صلى الله عليه وسلم، فَوَجَدَ عنْدَهُ أَبَا جَهْلٍ، وَعَبْدَ الله بْنَ أَبِي أُمَيّةَ بْنِ الْمُغيرَةِ، فَقَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: يَا عَمِّ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلّا اللهُ، كَلمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عنْدَ الله، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ، وَعَبْدُ الله بْنُ أَبِي أُمَيّةَ: يَا أَبَا طَالبٍ، أَتَرْغَبُ عَنْ ملّة عَبْد الْمُطّلب؟ فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم يَعْرِضُهَا عَلَيْه، وَيُعيدُ لَهُ تلْكَ الْمَقَالَةَ، حَتّى قَالَ أَبُو طَالبٍ، آخرَ مَا كَلّمَهُمْ هُوَ عَلَى ملّة عَبْد الْمُطّلب، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلّا اللهُ، فَقَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه

وسلم: أَمَا وَالله، لَأَسْتَغْفِرَنّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْك، فَأَنْزَلَ اللهُ عز وجل: {مَا كَانَ لِلنّبِيِّ وَالّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيّنَ لَهُمْ أَنّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ}، وَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِي أَبِي طَالِب، فَقَالَ لِرَسُول الله صلى الله عليه وسلم: {إِنّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ }.انتهى ».

{وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيّاهُ فَلَمّا تَبَيّنَ لَهُ أَنّهُ عَدُوٌّ لِلّهِ تَبَرّأَ مِنْهُ إِنّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوّاهٌ حَلِيمٌ (114)}

{وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيّاهُ} أي إبراهيم وعد أباه أن يستغفر له، رجاء إسلامه، وهو قوله: {سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي} [مريم: 47] لذلك استغفر له وهو مشرك.

{فَلَمّا تَبَيّنَ لَهُ أَنّهُ عَدُوٌّ لِلّه} فلما اتضح لإبراهيم أن أباه عدو لله لموته على الكفر {تَبَرّأَ مِنْهُ} تركه وتخلى عنه {إِنّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوّاهٌ حَلِيمٌ} اختلفوا في معنى الأواه على أقوال.

أصحها أنه الدّعّاء، كثير التضرع لله.

والحليم كثير الصفح والتجاوز عمن يؤذيه.

قال الطبري رحمه الله: وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب، القولُ الذي قاله عبد الله بن مسعود، الذي رواه عنه زرّ: أنه الدعّاء.

وقال: {فَلَمّا تَبَيّنَ لَهُ أَنّهُ عَدُوٌّ لِلّهِ تَبَرّأَ مِنْهُ}، وترك الدعاء والاستغفار له.

ثم قال: إن إبراهيم لدَعّاءٌ لربه، شاكٍ له، حليمٌ عمن سبّه وناله

بالمكروه.

وذلك أنه صلوات الله عليه وعد أباه بالاستغفار له، ودُعاء الله له بالمغفرة، عند وعيد أبيه إياه، وتهدُّده له بالشتم، بعد ما ردَّ عليه نصيحته في الله وقوله: {أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا}، فقال له صلوات الله عليه، {سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا} [مريم: 46-48] . فوفى لأبيه بالاستغفار له، حتى تبيَّن له أنه عدو لله، فوصفه الله بأنه دَعّاء لربه، حليم عمن سفِه عليه.

وأصله من "التأوّه"، وهو التضرع والمسألة بالحزن والإشفاق. انتهى

{وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (115)}

{وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ} معناه: ما كان الله ليحكم على قوم بالضلالة بعد أن وفقهم للهداية {حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ} يريد حتى يبين لهم ما يجتنبونه، فإذا بين ولم يأخذوا به فعند ذلك يستحقون الضلال {إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} لا يخفى عليه شيء.

{إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (116)}

{إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} لا شريك له فيهما، ويحكم بما يشاء {يحيي} من يشاء {ويميت} من يشاء.

قال الطبري رحمه الله: إن الله -أيها الناس- له سلطان السماوات والأرض ومُلكهُما، وكلُّ من دونَه من الملوك فعبيده ومماليكه، بيده حياتُهم وموتُهم، يحيي مَن يشاء منهم، ويميت مَن يشاء منهم، فلا تَجزَعوا أيها المؤمنون من قتال من كفر بي من الملوكِ، ملوكَ الروم كانوا أو ملوكَ فارس والحبشة، أو غيرَهم، واغزوهم وجاهدوهم في طاعتي، فإني المعزُّ من أشاء منهم ومنكم، والمذلُّ من أشاء.

وهذا حضٌّ من الله جل ثناؤه المؤمنين على قتال كلِّ من كفر به من المماليك، وإغراءٌ منه لهم بحربهم. انتهى

{وما لكم} أيها الناس {مِنْ دُونِ اللّهِ} من غير الله {مِن وَلِيٍّ} يتولى أموركم {وَلَا نَصِيرٍ} ينصركم.

أي: ما لكم وليٌّ يرعى شؤونكم أو ناصر ينصركم غير الله تعالى فهو نعم الناصر والمعين.

"فبالله فثقوا، وإياه فارهبوا، وجاهدوا في سبيله من كفر به، فإنه قد اشترى منكم أنفسكم وأموالكم بأن لكم الجنة، تقاتلون في سبيله فتَقتُلُون وتُقْتَلُون".